الفصل الأول 1

اللغة وظائفها وخصائصها

تعتبر اللغة من أهم ما وصل إليه الإنسان من وسائل التفاهم، كما أنها وسيلة المجتمع الأولى لصبغ أعضائه بالصبغة الاجتماعية، واللغة بمفهومها الحضاري تشمل كل ما يستجيب له الإنسان من ألفاظ أو رموز أو إشارات أو دلالات معينة، ولكن اللغة المنطوقة أو المكتوبة بأبجديات أو حروف متعارف على دلالتها تمتاز عن غيرها مما سبق ذكره باليسر والوضوح ودقة الدلالة.

وتلعب اللغة دورا حيويا في اندماج الفرد مع مجتمعه، بل اكتساب اللغة وإتقانها يؤثران في سلوك الفرد وإحساسه وتفكيره، والاندماج مع المجتمع لا يتم إلا بتنمية القدرات اللغوية التي يعقبها تنمية القدرة على الاتصال بالغير، وتعتبر عملية الاتصال عاملا مهما من عوامل النمو اللغوي من جهة والفكر من جهة أخرى، لأن الحضارة البشرية لم تصل إلى ما وصلت إليه الآن بغير الاتصال بين أفراد المجتمع والاتصال بين المجتمعات بعضها بالبعض الآخر، فاللغة هي العامل المشترك في تكوين الأسرة أو الجماعات والأمم، ولقد أوضح ديوي أهمية الاتصال لحياة الجماعة لثلاث أسباب رئيسة هي[1]:

1- أن وجود المجتمع ومن ثم استمراره يتوقف على نقل عادات العمل والتفكير والشعور من الكبار للناشئين ولا يمكن للحياة الاجتماعية أن تدوم بغير هذا النقل الشامل للمثل والآمال والآراء.

2- أن دوام المجتمع يتم بنقل الخبرة واتصال الأفراد، ولكن وظيفة اللغة لا تقتصر على ذلك فحسب بل هي أساس وجوده، فالناس يعيشون بفضل ما يشتركون به من أهداف وعقائد ومعلومات، والاتصال وسيلة اكتسابهم هذه الجوانب وغيرها.

3- أن الحياة الاجتماعية واتصال الأفراد صنوان يتربى عن طريقهما الناس، فنقل التراث والخبرات لا يتم إلا عن طريق اللغة، فاللغة هي العامل المشترك بين كل من المرسل والمستقبل، ويجب أن تكون هذه الرموز معبرة عن مجموعة من الأفكار والمفاهيم والإحساسات والاتجاهات والتي يريد المرسل أن يشارك فيها المستقبل لرسالته، بمعنى أصح عن طريق اللغة يستطيع الفرد أن ينقل كل ما يعتقد به للآخرين ويشركهم فيه.

فالرسالة كما قلنا قد تتمثل برموز أو إشارات أو صور أو حركات معبرة، وبما أننا نبحث في الطرق المناسبة لتدريس مادة اللغة العربية في مدارسنا فإننا نعني باللغة " الألفاظ والرموز الممثلة بالحروف العربية الأبجدية، والتي تحتمل دلالات مادية أو معنوية، ومجموع

هذه الألفاظ والرموز هي اللغة التي يتكلم بها التلاميذ ويتعاملون من خلالها مع أفراد المجتمع وزملائهم في المدرسة ومعلميهم داخل الفصول الدراسية وخارجها " وبذلك يمكن أن نقسم اللغة المكتوبة والمقروءة وهي اللغة الفصحى، واللغة العامية المتداولة بين الناس وهي التي لا نوافق أن تكتب أو تقرأ من خلال الكتب المدرسية أو نشرات الأخبار أو الصحف لأن ذلك أمنية الطاعنين بصلاحية لغة القرآن الكريم لكل زمان ومكان، بل توجه لها اتهامات بأنها لغة قاصرة عن استيعاب المستجدات والمتغيرات الدولية، وهي ليست كذلك.

ما المقصود باللغة؟

حظيت الدراسات اللغوية بنصيب وافر بين فروع العلم ،لأنها تمثل الحضارة الإنسانية على الأرض، ووسيلة التفاهم ليست بين أفراد المجتمع الواحد فحسب بل بين المجتمعات البشرية قاطبة، وبالرغم من تباين هذه المجتمعات وتباعد تواجدها ،فلم يبخل العلم الحديث علينا بوسائل الاتصال السريعة والترجمات الفورية التي تساعد في فهم المجتمعات الأخرى وطرق تفكيرها وميولها واتجاهاتها، فالبرغم من تفاوت الحضارات الأخرى وطرق تفكيرها والاتجاهات واتساع المسافات، إلا أن ما يحدث في أي بقعة من العالم وعبر عنه بأية وسيلة لغوية مباشرة كالكلام أو الكتابة أو إرسال البرقيات، أو غير مباشرة كالتعبير المسرحي أو التمثيليات أو الرسوم أو الإشارات، أقول ما يحدث في أي جزء من العالم وعبر عنه بإحدى هذه الوسائل فإن سكان الكرة الأرضية ممن يمتلكون أجهزة الاستقبال والاتصال يسمعونه ويحسون به، وهذا دليل على عالمية اللغة، التي لم يعد مفهومها يقتصر على مجرد وسيلة تفاهم بين أفراد مجتمع ما فحسب، بل أصبحت اللغة وسيلة تفاهم بين ألأفراد والمجتمعات البشرية قاطبة.

وإذا استعرضنا بعضا من التعريفات التي تربط بين اللغة والجماعة التي تتداولها، نلاحظ أنها تركز على عنصرين اثنين هما المتحدث الفرد والمستمع، وأصحاب هذا المذهب يؤكدون أن اللغة " مجموعة مصطلحات اتفق عليها أفراد مجتمع ما ".

فقد عرفها الشيرازي (1330) في القاموس المحيط " أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم" ، أما ابن خلدون (1886) فإنه يعرفها بأنها "ملكة في اللسان للعبارة عن المعاني، وهي في كل أمة بحسب اصطلاحاتها " [2].

ويقصد ابن خلدون بالمعاني هنا المدلولات المادية والمعنوية للألفاظ، فالمدلولات في حد

ذاتها تسبق الألفاظ وهي أقدم منها، لأن الأولى موجودة مع الكون وأما الثانية فمكتسبة، ويدل على هذا قوله تعالى ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ "الآيتان 31، 32 من سورة البقرة ".

من هنا نرى أن لكل شيء مادي معنى لغويا يدلل عليه، وأن لكل فكرة ألفاظا تعبر عنها وتجسدها، والمعاني والألفاظ في مجموعها تسمى لغة، فاللغة إذن في مفهومها الشامل " نظام من الرموز المنطوقة المكتسبة تستخدمه جماعة معينة من الناس بهدف الاتصال وتحقيق التعاون فيما بينهم " [3].

ويعرفها السيد بكر بأنها " أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم " وإذا كانت على المستوى الفردي فإنها "صوت يعبر به من المعنى المقصود في النفس "[4].

ويعتقد بكر أيضا أن هناك أعضاء في جسم الإنسان لها وظائف لغوية كلغة الشم ولغة اللمس ولغة النظر، فأي عضو من أعضاء الحس قد يصلح ليكون لغة، وإذا اتفق شخصان على إعطاء عمل ما دلالة خاصة ثم أديا هذا العمل كان هذا لغة بينهما فاللغة بناء عليه نظام من العلامات. A System of Signs.

من هذه التعريفات المختلفة يمكن أن نفهم أن اللغة أصوات اصطلح عليها للتعبر عن مدلولات مادية أو فكرية معينة، وهذه الأصوات لم تكن في يوم من الأيام منذ فجر التاريخ بدون معنى أو تطلق بشكل عشوائي، وقبل الحكم على مفهوم اللغة بشكل قاطع لا بد أن نتعرف على تعريف كلمة لغة، والآراء حول أصولها وخصائصها.

تعريف الكلمة:

كلمة لغة على وزن فعلة من لَغَوْتُ أي تَكَلمَتُ وأصلُها لُغْوَة مثل كلمة كرة، وقلة، وثبة، والقلة هي العيدان التي يلعب بها الصبيان وثبه هي وسط الحوض يقول زهير بن أبي سلمى:

وقد أغدو على ثبة كرام نشادى واجدين لمن نشاء

ويقول أبو ذؤيب الهذلي يصف أخذ العسل حينما يطرد النحل من خلاياها بالدخان:

فلما اجتلاها بالأيام تحيرت ثبات عليها ذلها واكتئابها

وأصل اللام في كل كلمة من الكلمات السابقة واو، ومثلها كلمة بره، وهي حلقة في أنف البعير أو في لحمة أنفه وبروة الناقة، أي جعلت في أنفها بره كإبرتيها فهي مبراة.

اللغة توفيقية أم اصطلاحية أم الهام؟

من التعريفات السابقة للغة يتبين أن اللغة اصطلاح أي اصطلح أفراد المجتمع على مفرداتها ومعانيها [5] وهذا يتفق مع رأي مذهب الاعتزال أو المعتزلة من أمثال أبي الحسن الأشعري ومحمد بن حسين بن فورك والجبائي وغيرهم.

وبعض اللغويين يعتبرها توفيقا من الله تعالى أمثال ابن حزم وابن جني الذي يذكر أيضا أن بعضها الآخر من الأصوات المسموعة من الطبيعة كصوت الريح وحنين الرعد، وخرير الماء ونهيق الحمار ونعيق الغراب ونزيب الظبي وغيرها.

ولكن هناك من يقف بَيْنَ بَيْنَ من أمثال أبي إسحق الإسفراييني وأبو بكر الباقلاني وغيرهما.

ولكننا من خلال فهمنا للغة على أنها ظاهرة اجتماعية، لا نود أن نجزم أن كل اللغات من صنع البشر وعلى الأخص أن علماء اللغة لم يقطعوا بالرأي أن اللغة مصنوعة بالكلية لأن نشأتها كما يقول فندريس تقع خارج مجال العالم اللغوي[6] ولكننا نود القول بأن اللغة تطورت وتفرعت من جذر واحد وهو اللغة التي أنطقها الله تعالى لآدم مصداقا لقوله سبحانه وتعالى ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ ... ﴾ آية 30 من سورة البقرة ".

فالله سبحانه انطق آدم بالأسماء المعروفة ثم علمه ما يجب أن يخاطب به زوجته وأبناءه، وكانت اللغة منذ الخليفة ناضجة كاملة ولكنها تطورت وازدهرت وتفرعت، وبدليل نضجها وكمالها منذ الخليقة قوله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ *

ودليل على أن اللغة مخلوقة أيضا وتطورت مع تطور البشرية قوله سبحانه وتعالى

---

* سورة البقرة آية 35-37 .